-١٢-

طه حسين .. وقضية النحل
تناقض ومرويات

الدكتور
يوسف طارق السامرائي
كلية الامام الاعظم الجامعة

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسولِ الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

لعلّنا في هذا البحث لا نرمَلُ فوقَ أرضٍ بِكْرٍ؛ بل هي أرضٌ قد كُثُرَ حارِثوها؛ ولكنّ ما يغرينا أنّ نتناوَلَ القضيَّةِ مجدَّداً هو شدَّةُ الهجمة؛ التي تواجهُ أمَّتَنا في وقتنا الراهن؛ فقد غدت تتناوشنا معاولُ الهدم، تريدُ أن تنال من ثوابتنا وقيَمِنا، وليس لهم من هدفٍ إلاّ الطعنَ في لغتنا، وفي جذور نشأة إبداعنا .

إنّنا نرى أنّ الطعنَ في الشعر الجاهلي، هو طعنٌ في راسيةٍ من رواسي أُمّتِنا؛ فالقرآنُ يُدَعَّمُ بالشعر الجاهلي، وبهما يُرَدُّ على صيحاتٍ ترتفعُ وتخفتُ تحاول وما زالت أن تنال من القرآن الكريم، ومن بعده الدين الحنيف، فتارةً يهاجمون القرآن في لغته، وأخرى يهاجمون النبي صلى الله عليه وسلم في سنّته، أو صحابته الكرام، وكلّهم يبغي الطعن في هذا الدين.

وفي بحثنا هذا، لم نتعرّض إلى كثير ممّا قدّمه الباحثون ممّن سبق في الردّ على هذه البدعة، التي سبق بها المستشرقون الدكتور طه حسين، فقد كان لمصطفى صادق الرافعي، وهو من مجايلي د. طه حسين صولات كثيرة في الردّ عليها، بل إنّه قد خصّص كتباً للردِّ على هذه البدعة من ذلك كتابه (**تحت راية القرآن**) و (**تاريخ آداب العرب**) وكانت للقضيّة مباحث كثيرة في كتبٍ عديدة منها كتاب (**الشعر الجاهلي**) للدكتور شوقي ضيف، وكتاب (**الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه**) للدكتور يحيى الجبوري، وكِلا الكتابين وصفيٌّ لم يهتمَّ إلاّ بسردِ أطروحات د. طه حسين، من دون ردود، بل كلاهما طرح أفكارَهُ، وكان الدكتور الجبوري قد تكلّم عن سردٍ تاريخي عن الانتحال، وألَمَّ بطرفٍ من أقوال د. طه حسين .

ويبدو أنّ الدكتور طه حسين ولفرط هجومه على الشعر الجاهلي، قد وهم في تسمية القضية بالانتحال، فهي (**النِّحل**) وليس (**الانتحال**) فانتحلَهُ وتنَحَّلَهُ: ادّعاه لنفسِهِ، وهو لغيرِهِ، ونحَلَهُ القولَ، كمَنَعَهُ: نسَبَهُ إليه، ويقال: نُحِلَ الشاعِرُ قصيدةً. إذا نسبَتْ إليه وهي مِنْ قيلِ غيره، وقال الأعشى في الانتحال:

فكيف أنا وانتحالي القوا في بعدَ المَشيبِ كفى ذاكَ عارا

فالانتحال: ما نسَبَهُ إلى نفسه))[1]، هنا قد ابتعدَ الدكتور طه حسين عن الصواب، بقوله الانتحال، فهؤلاء الرواة لم ينسبوا الشعر إلى أنفسِهم، بل نسبوا الأشعار إلى غيرهم - كما زعم - فكان الأولى به، وهو (**عميد الأدب العربي**) أن يتجنّب مثل هذا الخطل في القول . ونحن ندّعي خوضنا في الردِّ على هذه القضيَّة، وسنتناولُ بإلحاحٍ مسألةً قد بنى عليها الدكتور طه حسين جلَّ قضيّته ألا وهي الروايات الضعيفة، لاسيما روايات كتاب الأغاني، ومن المعلوم أنّ كتاب الأغاني فيه ادِّعاءٌ كثيرٌ ومبالغةٌ، ولا يصمدُ أمامَ التمحيص الدقيق[2]، وكذلك التناقض الذي اشتملت عليه قضيَّةُ الانتحال التي بناها .

⊙ **قضية النّحْل** :

يقول د. طه حسين : ((وأوّلُ شيءٍ أفجؤك به في هذا الحديث هو أنّي شككتُ في قيمة الشعر الجاهلي، وألححتُ في الشك، أو قُلْ ألحَّ عليَّ الشك ؛ فأخذتُ أبحث وأفكّر وأقرأ وأتدبّر، حتّى انتهى بي هذا كلِّه إلى شيءٍ إلاّ يكن يقيناً فهو قريبٌ من اليقين . ذلك أنّ الكثرةَ

(١) لسان العرب، ابن منظور، مادة (نحل) ١١/ ٦٥١ ؛ تاج العروس، للزبيدي، مادة (نحل) ٣٠/ ٤٦٣، المعجم الوسيط، الفيروز ابادي (ت: ٨١٧هـ) بإشراف : محمد نعيم العرقسوسي، مادة (نحل) ص ١٠٦٠ .

(٢) ينظر، كتاب: (السيف اليماني في نحر الأصفهاني)، وليد الأعظمي ؛ وكتاب : (الإيهام قراءة في منهجية الأغاني ومروج الذهب)، د. يوسف طارق السامرائي . ففيهما ردود في مواضع كثيرة تظهر عدم موضوعية أخبار صاحب الأغاني .

المطلَقَة ممّا نسمِّيه شعراً جاهلياً ليست من الجاهلية في شيء، وإنّما هي منتحلة مختلقة بعد ظهور الإسلام، فهي إسلامية تمثِّلُ حياةَ المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر ممّا تمثِّل حياة الجاهليين . وأكاد لا أشكُّ في أنّ ما بقي من الشعر الجاهلي الصحيح قليلٌ جدّاً لا يمثِّلُ شيئاً ولا يدلُّ على شيء، ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي. وأنا أُقَدِّرُ النتائجَ الخطرة لهذه النظرية، ولكنِّي مع ذلك لا أتردّد في إثباتها وإذاعتها، ولا أضعف عن أن أُعلِن إليك وإلى غيرك من القرّاء أنّ ما تقرؤهُ على أنّه شعر امرئ القيس أو طرفة أو ابن كلثوم أو عنترة ليس من هؤلاء الناس في شيء ؛ وإنّما هو انتحال الرواة أو اختلاق الأعراب أو صنعة النحاة أو تكلُّف القُصَّاص أو اختراع المفسِّرين والمحدّثين والمتكلِّمين))[١].

((وكلّما تباعدَ الناس عن عصر نزول القرآن برزت الحاجة إلى معرفة غريب القرآن، فكان الشعر مِنْ أهمِّ الوسائل لفهم هذا الغريب، والإجابة عن استفسارات الناس المتجددة. ثم تدخل محاولات جمع الشعر مرحلة التنظيم والجمع من خلال المجموعات الشعرية التي جمعها الثقات من اللغويين كالمفضليات والأصمعيات وجمهرة أشعار العرب، وتضمُّ هذه المجموعات قصائد لشعراء يُستشهد بشعرهم في مضمار اللغة. وقد يَجْمَعُ أحد علماء اللغة شعر أحد الشعراء الجاهليين في ديوانٍ واحد ويشرح غريبه، وبذلك مدَّ الشعرُ العربي حركةَ التفسير القرآنية التي بدت تنمو وتزدهر مع مرور الأيام، كما مدَّ هذا الشعرُ معاجمَ اللغة وكتب النحو والصرف والبلاغة بشواهد غزيرة تساهم في تأصيل علومها. وقد كان للعلماء الثقات في هذه الخطوات دورٌ كبير في سَدِّ أبواب الانتحال والوضع ؛ ليكون الإستشهاد مبنياً على أسس صحيحة))[٢].

(١) في الشعر الجاهلي، ص ١٩ .

(٢) ينظر، أثر القرآن في تطور النقد العربي، د. محمد زغلول سلام، ص١٩٤ ؛ عناية المسلمين باللغة العربية،

((ففي الشعر الجاهلي منتحل لا سبيل إلى قبوله، وفيه موثوق به، وهو على درجات : منه ما أجمع عليه الرواة، ومنه ما رواه ثقات لا شك في ثقتهم وأمانتهم، من مثل المفضل والأصمعي وأبي عمرو بن العلاء . وقد يغلب المنتحل الموثوقَ به، ولكن ذلك لا يخرج بنا إلى إبطال الشعر الجاهلي عامة، وإنّما يدفعنا إلى بحثه وتمحيصه مهتدين بما يقدم لنا الرواة الأثبات من أضواء تكشف الطريق .وقد لفتت هذه القضية، قضية النحل في الشعر الجاهلي، أنظار الباحثين المحدثين من المستشرقين والعرب، وبدأ النظر فيها نولدكه سنة (١٨٦٤م) وتلاه آلوَرْد حين نشر دواوين الشعراء الستة الجاهليين: امرئ القيس، والنابغة، وزهير وطرفة، وعلقمة، وعنترة، فتشكك في صحة الشعر الجاهلي عامة، منتهياً إلى أن عددًا قليلاً من قصائد هؤلاء الشعراء يمكن التسليم بصحته، مع ملاحظة أن شكّاً لا يزال يلازم هذه القصائد الصحيحة في ترتيب أبياتها وألفاظ كلٍّ منها .

وتابع كثير من المستشرقين آلوارد في موقفه الحذر من قبول كل ما يروى للجاهليين، أمثال موير وباسيه وبروكلمان، وكان مرجليوث أكبر من أثاروا هذه القضية في كتاباته إذ كتب فيها مقالاً مفصلاً نشره في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية بعدد يوليه سنة (١٩٢٥م) جعل عنوانه كما مر بنا ((**أصول الشعر العربي: ونراه يستهله بموقف القرآن الكريم من الشعر متحدثًا عن بدء ظهوره ونشأته وآراء القدماء في ذلك، ثم ينتقل إلى الحديث عن حفظه، وينفي أن تكون الرواية الشفوية هي التي حفظته، وقد بيَّنا آنفاً بأدلة لا تُدْفَع كيف أن سلسلة روايته لم تنقطع حتى عصر التدوين، ولكن مرجليوث يذهب هذا المذهب، ليقول إنّه لم تكن هناك وسيلة لحفظه سوى الكتابة، ثمَّ يعود فينفي كتابته في الجاهلية ليؤكد أنَّه نُظم في مرحلة زمنية تالية للقرآن الكريم** !. **ويقف بإزاء الرواة المتهمين أمثال حمّاد وجَنَّاد وخلف**

د. أحمد الخراط، ص٤٣ .

الأحمر وما كان يطعن به بعض الرواة في بعض))[١].

((وليس مرجع هذا الاختلاف هو في حقيقة وجود شعر جاهلي أصلًا، أو في عدم وجوده. فوجود شعر للجاهليين، حقيقة لا يُشَك فيها أبدًا، لأنّ الجاهليين هم مثل سائر الناس، لهم حسٌّ ولهم شعور، وما دام الحسّ موجودًا، فلا بد أن يظهر على شكل شعر أو نثر. وإنما الاختلاف هو في هذا الشعر المروي لنا، والمدون في بطون الكتب. هل هو جاهلي حقًّا، أو هو منحول فاسد محمول على الجاهليين؟ أو وسط بَيْنَ بَيْن، وفي كمية الصحيح منه، بالنسبة إلى مقدار الفاسد منه؟ هذا موضع الاختلاف بين العلماء. ثم إنَّ شعر المخضرمين، هو في حدِّ ذاته دليل على وجود شعر سابق جاهلي، فشعر مثل هذا لا يمكن أن يكون قد ظهر فجأة من غير شعر سابق ومن غير شعراء ماضين مهّدوا الجادة لمن جاء بعدهم ووضعوا لهم البحور المعروفة، وقد وجدها المخضرمون، فنظموا عليها))[٢].

ويردُّ مصطفى صادق الرافعي، فيذهب إلى ((أنَّ كتبَ السلف لم تنته إلينا بجملتها، ولا انتهى أكثرها، ولا ما يقال فيه إنّه كثير، وأنَّ الروايةَ لم تتأدَّ إلينا بما كانت تحمل من ذلك العلم المستطيل من الأشعار والأخبار والنّقد، فكيف يجوز له أن يحكم على شعر الجاهلية بأنه موضوع أو محمول على أهله، أو الكثرة المطلقة منه موضوعة محمولة، وهو لا يروي هذا الشعر، وهو لا يعرف ما مقداره، ولا يحيط بأقله فضلاً عن أكثره، وقد قالوا: إنّ ابنَ الأعرابي أملى وحدَهُ مِنَ الشعر أحمالاً، فأين هذه الأحمال اليوم حتى يقابل ما فيها بعضه ببعض، ومَن الذي يستطيع في عصرنا أن يقول في الشعر: هذا يشبه شعر الجاهلية وهذا لا

(١) العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف، ص ١٦٦ ؛ وينظر، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، د. يحيى الجبوري، ص ١٥٥- ١٧١ ؛ وينظر قضية شك في الشعر قديمة رسالة الغفران، أبو علاء المعري، تحقيق، درويش الجويدي، ص٨٩ .

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، ١٧/ ٦٣ - ٦٤ .

يشبهه، والتوليد في هذا بيِّن، والصنعة في ذلك ظاهرة، وهذا بقول فلان أشبهُ، وهذا ليس من نسج فلان، ولا من طبقته، وذلك منحولٌ رويناه في شعر فلان... الخ الخ؟

وقد وضع ابن سلام كتاباً في طبقات فحول شعراء الجاهليين لا يُعرف إلا اسمُه، أفتحسب راوية مثله يضع في أوائل القرن الثالث كتاباً في أسماء هؤلاء (الفحول) وليس بين يديه من شعرهم الكثير الصحيح قد غُربل ونخل ونُفي منه الموضوع والمنحول وما تقوَّلَتْهُ العشائرُ بأهوائِها، وما دسَّه الرواة بسببٍ من أسبابهم))[١].

ويزعم أنّ الشعر الجاهلي، لا يمثِّلُ حياتَهم، بل يرى أنّ ((هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين يُظهر لنا حياة غامضة جافة بريئة أو كالبريئة من الشعور الديني القويّ والعاطفة الدينية المتسلطة على النفس والمسيطرة على الحياة العملية؛ وإلاّ فأين تجد شيئاَ من هذا في شعر امرئ القيس أو طرفة أو عنترة؟ أوَ ليس عجيبًا أن يعجز الشعر الجاهلي كلّه عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين!.وأما القرآن فيمثل لنا شيئاً آخر، يمثِّلُ لنا حياة دينية قوية تدعو أهلها إلى أن يجادلوا عنها ما وسعهم الجدال . فإذا رأوا أنه قد أصبح قليل الغناء لجأوا إلى الكيد، ثم إلى الاضطهاد، ثم إلى إعلان الحرب التي لا تبقي ولا تذر.

أفتظن أنّ قريشًا كانت تكيد لأبنائها وتضطهدهم وتذيقهم ألوان العذاب ثم تخرجهم من ديارهم ثم تنصب لهم الحرب، وتضحّي في سبيلها بثروتها وقوّتها وحياتها لو لم يكن لها من الدين إلاّ ما يمثّله هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين؟ كلاّ! كانت قريشٌ متديِّنةً قويَّةَ الإيمان بدينها. ولهذا الدين وللإيمان بهذا الدين جاهدَتْ[٢] ما جاهدَتْ ووضحت ما وضحت. وقل مثل ذلك في اليهود؛ وقل مثلَهُ في غير أولئك وهؤلاء من العرب الذين جاهدوا النبي عن دينِهم ...

(١) تحت راية القرآن، ص ١٠٩ .

(٢) يدّعي أنّ المشركين قد جاهدوا النبي ؟! .

أرأيتَ أنّ التماس الحياة العربية الجاهلية في القرآن أنفع وأجدى من التماسِها في هذا الشعر العقيم الذي يسمُّونَه الشعر الجاهلي! أرأيتَ أنّ هذا النحو من البحث يغيّر كلَّ التغيير ما تعوَّدنا أن نعرف من أمر الجاهليين))[١].

((وواضحٌ أنّه يُبقي في الشعر الجاهلي على بقية صحيحة، وإن كانت في رأيه قليلة، ولا تعطينا الصورة الأدبية الوثيقة لهذا الشعر. وقد مضى يبسط الأسباب التي تدفع الباحث إلى الشك فيه واتهامه، وردّها إلى أنه لا يصور حياة الجاهليين الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية، كما أنه لا يصور لغتهم وما كان فيها من اختلاف اللهجات، وتباينها بلهجاتها من اللّغة الحميرية. أمّا من حيث حياتهم ؛ فيقول إنه عرضها على القرآن الكريم ؛ فوجده يمثلها من جميع جوانبها المذكورة تمثيلاً قويّاً ؛ فهو يجادل اليهود والنصارى والصابئة والمجوس ويهاجمهم كما يهاجم الوثنيين والوثنية، ويطلعنا في تضاعيف ذلك على جملة معتقداتهم، بينما نجد الشعر -كما يقول- بريئاً أو كالبريء من الشعور الديني القوي والعاطفة المتسلطة على النفس . وقياس الشعر الجاهلي في هذا الجانب على القرآن الكريم مردود أو منقوض، لأنَّ القرآن كتابٌ ديني يريد أن يجمع العرب على الإسلام ؛ فطبيعي أن يعرض لدياناتهم ويناقشها، ويبين ما فيها من ضلال، بخلاف الشعر، فإنَّ شاعرًا لم يدع لدين جديد، ومع ذلك فإنّ في كتاب (الأصنام) لابن الكلبي ذخيرة كبيرة من الشعر تصور حياتهم الوثنية تصويرًا دقيقاً. وينتقل إلى حياتهم العقلية فيلاحظ أنها غير واضحة في الشعر المنسوب إليهم، وكأنّه يطلب إليهم حياة عقلية راقية أو معقدة، وكانوا في جمهورهم بدْواً لم يتحولوا إلى طور فكري مُنَظَّم.. ومعنى ذلك أن حياتهم العقلية الفطرية ماثلة في شعرهم . ويخرج من ذلك إلى أنّ حياتهم السياسية لا تتضح في أشعارهم، مع أنهم كانوا على اتصال بمن حولهم من الأمم،

(١) في الشعر الجاهلي، د. طه حسين، ص ٣٠ - ٣٥ .

ممّا يوضحه القرآن الكريم في سورة الروم؛ إذ يعرض علينا العرب شيعتين: شيعة تنتصر للروم، وشيعة تنتصر للفرس . وهذا في الواقع لا يَصْدُق على العرب جميعاً؛ إنّما يَصْدُق على قريش وقوافلها التجارية التي كانت تنزل في بلاد الدولتين . ومع ذلك فقد كان شعراء نجد والحجاز يتصلون بالغساسنة من أتباع الروم، والمناذرة من أتباع الفرس ويمدحونهم ويهجونهم. ولمّا نشبت الحروب بين قبيلة بكر والفرس قبيل الإسلام هددهم شعراء هذه القبيلة وتوعدوهم طويلًا على نحو ما هو معروف عن الأعشى مثلاً))[1].

إنّ ما يدّعي د. طه حسين ينهي تاريخاً كاملاً للعرب عاشوه في جاهليتهم، فهو يطعن في الشعر فلا يكتفي بل يطعن في الأشخاص، والأحداث، والمواطن، حتّى أنّه ليحيل التاريخ الجاهلي إلى أكاذيب من صنع الرواة، وفي ردِّ الرافعي عليه، يقول: ((والشعر هو عمود الرواية: عليه مدارها وبه اعتبارها؛ وقد كانت منزلته من العرب ما هي، إذ كان يتعلق بأنسابهم وأحسابهم وتاريخهم وما يجري مع ذلك، حتى كأنه الحياة المعنوية لأولئك القوم المعنويين، فلم يكن عجبًا أن يدور فيهم مع الشمس والريح، وأن تُسَخَّرْ له ألسنتهم فينصرفوا إلى قوله وروايته، حتى بلغ منهم مبلغه.. ولم يكن من سبب في جاهلية العرب يبعثهم على وضع الشعر ونحلته غير قائله وإرساله في الرواية على هذا الوجه؛ لأنّ شعراءهم متوافرون، ولأنّهم لا يطلبون بالشعر إلا المحامد والمعاير، وقصارى ما يكون من ذلك أن يتزيّد شاعرُهم في المعنى ويكذّب فيه إذا هو حاول غرضًا أو أراغ معنىً ممّا تلك سبيله، وعلى أنّ ذلك لا يكون إلاّ في الأخبار التي تلحق بالتاريخ؛ لأنّ الشاعر موضع الثقة، وهو مصدر رواية في العرب، فإن أرسل القول أرسل معه التاريخ فيجريان معًا؛ وذلك كالذي ادّعاه الأعشى في منافرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل، فإنّهما تنافرا إلى هرم بن قطبة

(١) العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف، ص ١٧١ .

في خبر مشهور، فاحتال لهما حتى رضيا بحكمه جميعًا؛ إذ كره أن يفضل أحدهما على الآخر وهما ابنا عم فيوقع بذلك عداوة بين الحيين؛ فوصفهما بأنّهما في المنزلة كركبتي البعير الأردم: تقعان إلى الأرض معًا. ولكنّ الأعشى ادّعى أنّهما حكما هرماً، وأنّه حكمَ لعامرِ على علقمة، وقال في ذلك بعض قصائده وأشاعها في العرب، فلبس على الناس؛ وإنما جاء هذا الإفك؛ لأنه كان ممّن ثار مع عامر، وكان قبل ذلك حين رجع من عند قيس بن معد يكرب بما أعطاه، طلب الجوار والخفرة عن علقمة، فلم يكن عنده ما طلب، وأجاره وخفره عامر حتى أدّاه وماله إلى أهله. وهذا التزيُّد هو الذي يسميه الرواة أكاذيب الشعراء, أما أن يكون في عرب الجاهلية من يصنع الشعر وينحله غيره على نحو ما كان في الإسلام، فذلك ما لا نعلمه ولا نظنه كان البتة))[١].

ويضيف في كتابه (تحت راية القرآن) قائلاً: ((والتاريخ عنده هو كل شيء إلاّ الحقيقة؛ لأنّ الحقيقة بزعمه لا تلتمس فيه البتَّة، ولهذا الكاتب آراء فاسدة ظاهرة البطلان، منها رأيه في التاريخ، ولكنّه يسوقها في عبارات بليغة إذا أنت كنت بصيراً بصناعة البيان ودقَّقت فيها رأيت فساد المعاني وحركة اضطرابها في ذهن هذا الرجل من ألطف أسباب بلاغته، كأنّه يريد أن يأتيك بالبلاغة في هيئة راقصة خليعة مبتذلة تتطوَّسُ لك في ألوانها وخُيلائها وتُفحِش عليك في دلِّها وغَزَلها فلا تشك في سقوطها وسفالها، ولكنك لا تنكر -أيضاً- أنّ هذا كله أجمل الجمال فيها، ثمّ إنه رجل ذو فكر واسع ينتظم النقائض من أطرافها، ويأخذها على ما أرادها من معاني نفسه لا من معانيها، ويعطيها قرَّاءَه على الوجه الذي يريده من معانيه كذلك لا من معانيها، وما البلاغة إلاّ مثل هذا السحر إن لم يكن هو إياها. ولكن ما بال أستاذ الجامعة في عبارته الركيكة وذهنه الفج وخياله المطموس وقلبه المطبوع عليه وفلسفته

(١) تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، ص ٢٢٨.

الزائفة وتقليده الأعور؟ وما له يجهل فرْقَ ما بين التاريخ يتولاه كاتب للقصة والحكاية، وما بينه حين يتولاه أستاذ للتمحيص والتحقيق! ثم بين التاريخ على أنّه مادة فلسفية من الأعمال والحوادث، وبينه على أنه مادة علمية من الأنفس والعقول؟ وما عسى أن يكون غناء الإنكار مع الحجج والنصوص المُجْمَع عليها، إلاّ أن تكون تلك حيلة احتال بها الأستاذ، وهو يعلم أنه قليل الاطّلاع، فيجعل الكثير الذي لم يقف عليه بسبيل من القليل الذي وقف عليه، ويبني للمعلوم والمجهول بناءً واحداً هو الشك الذي لا يدري أحد أين يقع ولا ماذا يمحو ولا كيف يكون، ولكنه مع ذلك يمحو ويكون كما يريد طه حسين، ولا طه في الدنيا إلاّ طه الذي في الجامعة .. يعلم هذا مَن عَلِمَ ويجهَل من جهل!))[1].

((ومن العجيب أن أستاذ الجامعة الدكتور طه حسين لم ينتهج إلاّ الطريقة التي لا تلتئم مع طبيعة هذا التاريخ، فهو يبحث دائماً عن العلة في أحد شيئين : إمّا في غير معلولها، وذلك خطأ كبير؛ وإمّا في معلولها بعد أن يغيره على ما يتوهم، وذلك شرٌ من الأول، ومثل هذا إن سُمي بحثاً وسمي فلسفة في التاريخ لا يمكن البتَّة أن يسمى تاريخاً، ولا يخرج منه إلاّ كلام مستفيض هو على كل حال كلام قائله وعلى قدر من عقله وذكائه واطلاعه وطريقة فهمه، لا بحسب التاريخ ورجاله وعِلَلِه، فيكون الأستاذ كأنّه يدرس فناً من الكلام بعض مادته من التاريخ، لا فناً من التاريخ بعض مادته من الكلام. وهذه الطريقة التي تسمَّى علمية هي في التاريخ أجهل الطرق، لأنّها تختلف فيما تقرره باختلاف الرجال والأزمنة، مع أن التاريخ شيء ثابت لا يختلف ولا يمكن أن يُخلَق مرة أخرى، لا بإنشاء الجامعة المصرية ولا بأمر وزارة المعارف ... ومتى ولد التاريخ لم يهرم ولم يمت، ثم تلك الطريقة هي أيسر الطرق وخاصّة على من كان قليل الاطلاع، فإنك لا تتقيد فيها بمعروف تعرفه ولا بمنكر تنكره،

(١) تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، ص ٩٨ - ٩٩ .

إلاّ ما شئت وشاءت لك غفلة من حولك، ثم أنك تركب إليها كل أسلوب فإذا جميع الطرق تؤدي إلى غايتها، لأنّها لا غاية لها إلاّ ما تَوَهَّمْتَه غاية وقلتَ إنَّه غايةٌ))[١].

إنّ باحثاً مثل الدكتور طه حسين، لا بدَّ له وهو يخوض في هذا الموضوع الذي ادّعى فيه أنّه يفجأ المتلقّي، وإن كان هو عيالٌ على المستشرقين، غير أنّ سبيلَ الباطل منضَّدٌ بالشوك؛ ولا بدَّ لمن يسلكُهُ أن يتحمّل عواقب ذاك السلوك لاسيما وإن كان يدوس ذاك الشوك بقدمين عاريين، فالدكتور طه حسين، بنى قضيَّتَه من فراغ؛ ولذلك فهو حاولَ أن ينتقل هنا وهناك من دون منهجية واضحة، ليؤكِّدَ هذه النظرية البائسة. فهو قدّمَ بأنّ الشعر الجاهلي مُنْتَحَلٌ، ولكن عاد ليناقض نفسَه في أكثر من مرّة في كتابه نفسه، يقول: ((لا ينبغي أن يستشهد بهذا الشعر على تفسير القرآن وتأويل الحديث، وإنّما ينبغي أن يستشهد بالقرآن والحديث على تفسير هذا الشعر وتأويله))[٢]. فهو -هنا- يُثبِتُ أنّ هناك شعر، ولكن شعر يأتي بعد القرآن الكريم، وهذا ممّا لا شكّ فيه، فأين قوله بعدم وجود الشعر الجاهلي، ثمّ يقول: ((وقد يكون هذا صحيحاً في الشعر الجاهلي؛ لأنّ كثرةَ هذا الشعر منتَحَلةٌ مصطنعة))[٣].

((ومع أنّ الطريقة العلمية قائمةٌ على استقراء المادة والإحاطة بها من جميع جهاتها، فهي لا تخرج التاريخ نفسه كما هو في الواقع، وإنما تجيء برأي فيه يكون معياره دائماً ذكاء صاحبه وعقله وخياله، ولهذا اشترطوا في صاحب تلك الطريقة أن يكون ممن رُزقوا البراعة كلَّ البراعة في إصابة الحدس وقوّة الخاطر وسمو الخيال، وإلاّ خرج عمله بلا معنى، أو بمعنى لا قيمة له، أو بقيمة ضعيفة تنزل من التاريخ منزلة الهيكل العظمي من الجسم الحي.

(١) المصدر نفسه، ص ١٠١ .
(٢) في الشعر الجاهلي، ص ٢١ .
(٣) المصدر نفسه، ص ١٥٧ .

وكان الإمام المرزباني قد وضع كتاباً غير الكتاب الذي أومأنا إليه آنفاً؛ قال ابن النديم : إنه أكثر من خمسة آلاف ورقة أتى فيه على أخبار (الشعراء المشهورين) من الجاهلية، وبدأ بامرئ القيس وطبقته، ثمّ المخضرمين، ثمّ الإسلاميين إلى أول الدولة العباسية، فهذه أخبار شعراء مائتي سنة من التاريخ، بل المشهورين منهم، وقد كتبت في خمسة آلاف ورقة، أي عشرة آلاف صفحة، لم ينته إلينا منها صفحة واحدة، فكيف مع ضياعها وضياع كثير من أمثال هذا الكتاب الجامع الممتع يُقبل عقلاً من مؤرخ علمي يجلس في كرسي التحقيق أن يقرر مثل هذا الهُراء الذي جاءنا به الدكتور طه حسين في إنكار الشعر وإثباته، على حين أنّه مع هذا النقص الفاضح تنقصه كذلك ملكة الشعر فما هو بشاعر يدرك بالحس كما أدرك مثل ذي الرمة حين سئل عن شعر أنشده حماد الراوية في مدح بلال بن أبي بردة، فقال: إنه جيدٌ وليس له، فلمّا عزم بلال على حماد ليخبرنَّه، قال: إنّ الشعر قديم ولا يرويه غيري وقد انتحلته. ولجرير والفرزدق وغيرهما من الشعراء أَخبار كثيرة من مثل هذا، يقرأون بنفوسهم كما يقرأون بأعينهم، فلا يحسن أن يقول المؤرخ في الشعر إلاّ إذا كان شاعراً يوثق بملكته، فإنّ الحسّ والملكة من أقوى أسباب الرأي في مثل ذلك.

ومع نقص النقص في أستاذ الجامعة فهو لا يحسن نقد الشعر، لأنّ النقدَ قائمٌ بالمِلكة والفهم لا بالفهم وحده، ولم ينتقد في كتابه (**الشعر الجاهلي**) نقداً فنياً إلاّ بيتاً واحداً من قصيدة عمرو بن كلثوم المعروفة بالمعلقة، وهو قوله :

ألا لا يجهلنْ أحدٌ علينا فنجهلَ فوق جهل الجاهلينا

قال الأستاذ: قلتُ إنَّ هذا البيت يمثّل إباء البدوي للضيم، ولكني أسرع.. فأقول إنه لا يمثل سلاسة الطبع البدوي وإعراضه عن تكرار الحروف إلى هذا الحد الممل فقد كثرت هذه الجيمات والهاءات واللاّمات واشتد هذا الجهل حتى مُلّ. انتهى.

قلنا: ليته لم يسرع ولم يفرح بهذا الخاطر فقد عثر من إسراعه فامتلأ فمه تراباً، ومتى كان

الأستاذ طه حسين يفطن إلى عيب تكرار الحروف وهو الذي كانت تضرب به الأمثال في التكرار قبل أن نلقنه ذلك الدرس في جريدة (السياسة) وهو لم يبرأ بعدُ من هذه العلة، فقد رأينا له مقالاً في (مقتطف) شهر مارس من هذه السنة (١٩٢٦م) جاءت فيه هذه الشأشأة... (يمضي حيث يشاء ويصور الأشياء كما يشاء لا كما تشاء الأشياء) فتأمل.

نقول لأستاذ الجامعة : إنّ التكرار في بيت عمرو بن كلثوم هو سر البلاغة فيه، وهو اللون الذي نفضه الشاعر من ألوان روحه على المعنى ليخلقه خلقاً حيّاً بحيث لو لم يكن هذا التكرار لضَعُفَ المعنى وسقطتْ رتبةُ الشعر))[١]، ولا يخفى أنّ التكرار لا يقبل أو يرفض إلاّ وهو منحاز إلى السياق، لأنّ التكرار قد يكون وظيفياً، يساق في خدمة الشاعرية؛ فإنّنا نرى أنّ محور بيت عمرو بن كلثوم؛ هو لفظة الجهل، بما فيها من دلالة، تعاونها تلك الأصوات مثل الجيم، والهاء، واللاّم؛ فهذا الجذر حينما يتكرّر ففي تكراره تصويرٌ حيٌّ لما أرادَهُ الشاعر من دلالة . ويعود ليفتري على القدماء، فيدّعي أنّ القدماء هم من شكّكوا في الشعر الجاهلي، من دون أن يبيّن أنّ القدماء قد طعنوا في روايات محدودة تتّضح فيها الصنعة، أو لم يعرف قائل الأبيات فيها، بينما هو يقول: ((**لنبيّن كيف كان القدماء يتبيّنون كما نتبيّن ويحسُّون كما نحس أنّ هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين أكثره منحول، لأسباب منها السياسي ومنها غير السياسي. كان القدماء يتبيّنون هذا. ولكن مناهجهم في النقد كانت أضعف من مناهجنا؛ فكانوا يبدءون ثمّ يقصرون عن الغاية. ومن هنا زعم ابن سلام أنّه يستطيع أن يروي لنا شيئاً من أوّلية الشعر العربي، فروى أبياتاً تنسب لجُذَيمَةَ الأبرش، وأخرى تنسب لزهير بن جنّاب، ونحو هذا . وسترى أنّنا نحن لا نستطيع أن نقبل هذا الشعر، كما أنّ ابن سلّام لم يستطع أن يقبل شعر عاد وثمود**))[٢].

(١) تحت راية القرآن، مصطفى صادق الرافعي، ص ١١٠ - ١١١ .

(٢) في الشعر الجاهلي، ص ٧٩ .

نرى بوضوح أنّه يساوي بين شعر عاد وثمود، وبين شعر شعراء لا يفصل بينهم، وبين بقيّة الشعراء إلاّ أعواماً قليلة، والخالق - تعالى - يقول: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۞ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۞ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۞ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۞ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾[١]، أفليسَ يحقُّ لابن سلاّم أن يشكَّ في هذا الشعر؛ وهذا النص وسواه تدلُّ على ما حلَّ بهم، فهل من بقية يروون عنهم شعرهم[٢].

ويُثْبِتُ لامرئ القيس أشعاراً، بعد أن نفاها سابقاً، يقول: ((وإذا رأيت معنا أن كل هذا الشعر الذي يتصل بسيرة امرئ القيس إنما هو من عمل القصّاص فقد يصح أن نقف معك وقفة قصيرة عند هذا القسم الثاني من شعر امرئ القيس وهو الذي لا يفسر سيرته ولا يتصل بها. ولعل أحق هذا الشعر بالعناية قصيدتان اثنتان:

- **الأولى**: **قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل**
- **والثانية**: **ألا أنعِم صباحاً أيها الطللُ البالي**

فأما ما عدا هاتين القصيدتين فالضعف فيه ظاهرٌ والاضطراب فيه بيِّنٌ والتكلف والإسفاف فيه يكادان يلمسان باليد . وقد يكون لنا أن نلاحظ قبل كل شيء ملاحظة لا أدري كيف تتخلص منها أنصار القديم، وهى أنّ امرأ القيس - إن صحّت أحاديث الرواة - يمنيٌّ، وشعره قرشيُّ اللغة، لا فرق بينه وبين القرآن في لفظه وإعرابه وما يتصل بذلك من قواعد الكلام . ونحن نعلم - كما قدمنا - أنّ لغة اليمن مخالفة كل المخالفة للغة الحجاز، فكيف نظم الشاعر اليمني شعره في لغة أهل الحجاز ؟ بل في لغة قريش خاصة؟ سيقولون: نشأ امرؤ القيس في قبائل عدنان وكان أبوه ملكاً على بني أسد وكانت أمُّة من بني تغلب وكان

(١) الحاقة / ٤ - ٨ .

(٢) ينظر رأيه في كتابه، في الشعر الجاهلي، ص ٧٨ .

مهلهل خالَه، فليس غريباً أن يصطنع لغة عدنان ويعدل عن لغة اليمن. ولكننا نجهل هذا كله ولا نستطيع أن نثبته إلاّ من طريق هذا الشعر الذي ينسب إلى امرئ القيس. ونحن نشكُّ في هذا الشعر ونَصِفه بأنّه منتَحَل))[١].

من الجلي أنّه لم يستطع مجاراة نظريته ؛ لذلك وجدناه مذبذباً لا يستطيع إثبات أقواله . وبينما يعود إلى ذكر شاعرين جاهليين، فهو يورد قول ابن سلام، الذي كان له عوناً على نظريته، غير أنّه يتناقض بهذا القول مع ما قرر من إنكار للشعر الجاهلي، لأنّ ((لابن سلام مذهب من الاستدلال لإثبات أنّ أكثر الشعر قد ضاع، لا بأس بأن نلمّ به إلمامة قصيرة. فهو يرى أنّ طَرَفة بن العبد وعبيد بن الأبرص من أشهر الشعراء الجاهليين وأشدّهم تقدّماً. وهو يرى أنّ الرواة الصحيحين لم يحفظوا لهذين الشاعرين إلاّ قصائد بقدر عشر. فهو يقول: إن لم يكن هذان الشاعران قد قالا إلاّ ما يُحفَظ لهما فهما لا يستحقَّان هذه الشهرة وهذا التقدّم ؛ وإذن فقد قالا شعراً كثيراً ولكنّه ضاع، ولم يبق منه إلاّ هذا القليل. وشقّ على الرواة أو على غير الرواة ألاّ يروى لهذين الشاعرين إلاّ قصائد بقدر عشر فأفاضوا إليهما ما لم يقولا، وحُمِلَ عليهما كما يقول ابن سلام حملٌ كثير))[٢].

يقارن مصطفى صادق الرافعي بين نصِّه هذا، والأصل الذي ورد عند ابن سلاّم فيقول: ((أمّا الأصل في اللغة العربية فهو: (وممّا يدلُّ على ذهاب العلم وسقوطه قلّة ما بقي بأيدي الرواة والمصححين لطرفة وعبيد، والذي صحّ لهما قصائد بقدر عشر، وإن لم يكن لهما غيرهن فليس موضعهما حيث وُضعا من الشهرة والتقدمة، وإن كان يروى من الغثاء لهما فليسا يستحقان مكانهما من أفواه الرواة، ونرى أنّ غيرهما قد سقط من كلامه كلام كثير. غير أنّ الذي نالهما من ذلك أكثر، وكانا أقدم الفحول ؛ فلعل ذلك لذلك، فلما قلَّ كلامهما

(١) في الشعر الجاهلي، ص ١٥٣ - ١٥٤ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٨ .

حُمل عليهما حمل كثير).

انتهى النص، وعارِض أنت بلاغة ببلاغة ولغة بلغة، وقابِل بين ما ذهب إليه طه وما أراد ابن سلام؛ فمهما أخطأ فلن يخطئك أن تعرف الفرقَ بين الثرثرة والقصد، وبين هزيل الكلام وسمينه؛ وبين صحة الفكر وفساده، وبين الأخذ من الدليل بقيده والاتساع في الدليل على إطلاقه، وما يرى ابن سلام إلاّ أنّ كثرة ما ضاع من شعر طرفة وعبيد إنما كان لأنهما أقدم الفحول، فَبَعُدَ العهد به ومات بموت من علموه من عرب الجاهلية . فهذا نص على بعض أسباب ضياع ما ضاع من الشعر إن كثيراً أو قليلاً، ثم في عبارته نص آخر ينقض كتاب الجامعة كله، وهو إثبات أنّ لنا (رواة مصححين)، وأنهم صححوا لطرفة وعبيد قصائد بقدر عشر، وأثبتوا أن ما عداها غثاء حُمل عليها حملاً. ويلزم من هذا أنّهم درسوا الشعر وجمعوه وحققوا روايته وأثبتوا الصحيح ونصوا عليه وميزوا المنحول وردوه وفصلوا الشعراء وقالوا في كل منهم وعارضوا بين الأقوال ورجحوا واستدلوا واحتجوا وناظروا، فوجب من ثم أن نصير إلى قول أولئك المصححين ونأخذ بعلمهم ونقف عند ما نصوا عليه، لأنهم كانوا أهل هذا العلم ولا أهل له من بعدهم إلا بِصلة تنتهي إليهم؛ وهو ظاهر أن هؤلاء الرواة لم يُثبتوا في كتبهم إلا ما صحّ عندهم، وأنه ليس على الأرض اليوم من يستطيع بعض ما فعلوه، لأنّنا بالإضافة إليهم أمة من الأعاجم؛ وبديهي أن ما يكون من وسائل العلم والرواية والنقد بعد مائة سنة من تاريخ الجاهلية لا يكون مثله ولا بعضه ولا بعض من بعضه بعد أربعمائة وألف سنة، وخاصة مع انقطاع الأسانيد وضياع الكتب؛ فأين هذا كله مما يذهب طه إليه وما خرف به في كتابه ؟))[1]، ((ولكن إذا كان هذا الجزء - ولو قليلًا - صحيحًا وأصيلًا، فلماذا نهمله ولا نعتمد عليه في أي شيء؟ أعتقد أنه إن لم يكن كافيًا لإعطاء صورة كاملة

(١) تحت راية القرآن، ص ١٤٠ - ١٤١ .

للعصر الجاهلي، فليس أقل من أن يعطينا صورة صحيحة جزئية تمثل الناحية التي هو نص صريح فيها))[١].

⊙ **اعتماد المرويات** :

((حينما نتحدّث عن الرواية والرواة، إنّما نعني الرواية الصحيحة الموثّقة والرواة الثقات وننبّه على الرواة الوضّاعين ونقوِّم الشعر حسب منزلته من علوّ الرواية وصحّة الأصول، فعلى مقدار صحّة الشعر تكون الثقة به والاعتماد عليه، لأنّ ما بأيدينا من شعر الجاهلية، وكذلك شعر الإسلام لا يصحّ أن يُقبَل على أنّه صحيحٌ لا ريب فيه، كما لا يصحُّ أن يُرفَض على أنّه باطلٌ لا نفع به، وإنّما يؤخذ بالتنقية والتنقيح، والفحص والتمحيص، فمنه الصحيح الذي لا غبار عليه وثّقَه الرواة وشهد بصحّته الناقلون الثقات، ومنه الفاسد المصنوع أو المنسوب إلى تلك الفترة، وقد رفضه النقّاد، ونبّهوا عليه))[٢].

((هؤلاء العلماء الأثبات، حين جرحوا الرواة وكذّبوا الوضّاعين وبيّنوا الشعر الفاسد المصنوع، وثّقوا من ناحية ثانية الشعر الصحيح وعدّلوا الرواة الثقات، وشهدوا لهم بالدّقة والأمانة والعلم. ففي الشعر الجاهلي والشعر الإسلامي شعر منتحل موضوع، ولم يكن النقاد القدامى غافلين عنه، فقد نقدوه ومحّصوه وبيّنوا صحيحه من فاسده، ولكنّ ذلك الشعر المصنوع لم يكن من الكثرة بحيث يضطرب الدارسون في معرفته، أو يتّخذون ذلك القليل الفاسد وسيلةً لاتّهام الشعر الجاهلي عامّة؛ فإنّ من التجاوز على الحق والخروج على أصول البحث العلمي، أن نغلو في تقدير المنحول ونبالغ فيه معتمدين على مفترضات لم تثبت ولم تصحّ تاريخياً، ومن الخطأ الفاحش أيضاً أن تؤخذ فكرة الانتحال مركباً ذلولاً لدفع كل ما

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، د. جواد علي، ١٧/ ٦٧ .

(٢) الشعر الدجاهلي خصائصه وفنونه، د. يحيى الجبوري، ص١٥٥ .

يغمض على الدرس ويلتبس مع النظرة العجلى ومع القصد الفاسد الخبيث))[١].

ولا بدّ لمن يتصفّح كتب تاريخ الأدب -أو التأريخ عامّة- أن يصطدم بكمّ هائل من الروايات - التي لا تصمد أمام الحقائق - بل وتضعف وتنهار؛ إذا ما عرضت على العقل أو المنطق، فكان الدكتور طه حسين، ومن لفَّ لفّه من المستشرقين من السباقين إلى مثل هذه الروايات، ولذلك وجدنا أنّ من أوائل الكتب المحقّقة كتاب الأغاني، بما فيه من تشويه وتزييف لحقائق تأريخية، ومن إثارة للغرائز الحيوانية، ومن طعن وشتم، بل وحثّ على النعرات الطائفية، والتمذهب، والخلافات. فعلى من يدّعي أنّ منهجيته حديثة، وهو ذو رأي رشيد؛ أن لا يحقر أقوال الآخرين، عليه أن يقف أمام هذه الروايات المنحرفة، ويعرضها على المنطق العلمي السليم، لا أن يجعلها مسلّمات يبني عليها نظرية تطعن في راسية من رواسي تاريخنا المجيد. ((قال ابن سلاَّم : وقد نظرَتْ قريش فإذا حظّها من الشعر قليل في الجاهلية، فاستكثرت منه في الإسلام . وليس من شك عندي في أنّها استكثرت بنوع خاص من هذا الشعر الذي يهجى فيه الأنصار. ولمّا قتل عمر وانتهت الخلافة بعد المشقة إلى عثمان، تقدّمت الفكرة السياسية التي كانت تشغل أبا سفيان خطوة أخرى، فلم تصبح الخلافة في قريش فحسب، بل أصبحت في بني أميّة خاصة..))[٢].

إنّه ذاك النَّفَس التحريضي الذي بُثَّ، فتارةً قريش وتارة الأنصار، ثمّ ما بين قريش، فهذا أموي، وآخر علوي، وثالث عباسي، وبذلك تصاعدت أصوات التفرقة وانبثقت لتنبجس منه فتن كقِطَع اللّيل المظلم؛ الذي صادرت حيواتنا إلى يومنا هذا . وها هو يمسُّ نقاء الصحابة - رضوان الله عليهم -، فينقل رواية عن صاحب الأغاني[٣]، ذاك الذي يروي،

(١) الشعر الدجاهلي خصائصه وفنونه، د. يحيى الجبوري، ص ١٥٨.

(٢) في الشعر الجاهلي، ص ٦٦ .

(٣) أبو الفرج الأصفهاني علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم المتوفى (٣٥٦هـ) صاحب كتاب الأغاني،

وكأنّما هو في عصر الرسالة، بينما هو في القرن الرابع الهجري، فهو يذهب إلى أنّ حسان بن ثابت تناشد مع أخوين من مكة، يقول: ((تحدّث الرواة أنّ عبد الله بن الزعبرى، وضرار بن الخطاب قدِما المدينة أيّام عمر فذهبا إلى أبي أحمد بن جحش، وكان رجلاً ضريراً حسن الحديث يألفه الناس ويتحدّثون عنده، قالا : جئناك لتدعو لنا حسان بن ثابت لينشدنا وننشده؛ قال : وهو ما تريدان، وأرسل إلى حسان فجاء؛ قال : هذان أخواك قد أقبلا من مكة يريدان أن يسمعاك ويسمعا لك؛ قال حسان : إن شئتما فابدأ أو إن شئتما بدأت؛ قالا : بل نبدأ، فأخذا ينشدانه ممّا قالت قريش في الأنصار حتى فار وأخذ يغلي كالمِرجَل، فلمّا فرغا استوى كلٌّ منهما على راحلته ومضيا إلى مكة . وذهب حسان مغضباً إلى عمر وقصَّ عليه الخبر، قال عمر : سأردّهما عليك - إن شاء الله - ثمّ أرسل من ردّهما حتى إذا كانا بين يدي عمر ومعه نَفَرٌ من أصحاب النبي، قال لحسان : أنشدهما ما شئت، فأنشَدَهما حتى اشتفى . وقال عمر بعد ذلك - فيما يحدِّثنا صاحب الأغاني - : قد كنت نهيتكم عن رواية هذا الشعر لأنّه يوقظُ الضغائن، فأمّا إذ أبوا فاكتبوه . وسواء قال هذا عمر أم لم يقله، فقد كان الأنصار يكتبون هجاءهم لقريش ويحرصون على ألاّ يضيع))[1]. ((وليس عنده إلاّ العصبية والميل مع طبع الجاهلية حتى في إمام أهل الحق عمر ابن الخطاب، وقد ذكر الرواةُ أنّ عمر مرّ ذات يوم فإذا حسان في نفر من المسلمين يُنشدهم شعراً في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم فأخذ بأذنه وقال : أرُغاء كرغاء البعير، قال حسان: إليك عني يا عمر! فو الله

ومقاتل الطالبين، وكتاب أيام العرب، ولد في أصبهان، وتوفّي في بغداد، قال ابن الجوزي فيه : ومثله لا يوثّق به ... ومن تأمل كتاب الأغاني رأى فيه كلّ قبيح ومنكر، ويقول عنه الإمام الذهبي : كان أبو الفرج الأصبهاني أكذب الناس، كان يشتري شيئاً كثيراً من الصحف، ثمّ تكون رواياته كلّها منها . ينظر، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، للذهبي، ٣/ ١٣٥ ؛ وينظر، شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي، ٣/ ١٩ ؛ وسير أعلام النبلاء، الذهبي، ١٦/ ٢٠١، يتيمة الدهر، الثعالبي، ٣/ ٦٠٦ ؛ والبداية والنهاية، ابن كثير، ٦/ ٢٨٠ ؛ الأعلام، الزركلي، ٤/ ٢٧٧ .

(١) في الشعر الجاهلي، ص ٦٥ - ٦٦ .

لقد كنت أنشد في هذا المكان من هو خير منك! فيرخي عنه عمر ويمضي.

قال: وفقهُ هذه الرواية يسير لمن يلاحظ ما قدّمنا من أنّ الأنصار كانوا موتورين وأنّ عصبيتهم كانت لا تطمئن إلى انصراف الأمر عنهم فكانوا يتعززون بنصرهم النبي صلى الله عليه وسلم وانتصافهم من قريش... وكان عمر قرشياً تكره عصبيته أن تزدَرَي قريش، وينكر - كذا كذا - ما أصابها من هزيمة - يعني في غزوة بدر - انتهى.

ولكن من أين لأستاذ الجامعة أنّ حساناً كان ينشد يومئذ في هجاء قريش في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ليعزي الأنصار وينوح لهم كالنائحة المستأجرة حتى ثارت لذلك عصبية عمر ورجع وهو أمير المؤمنين إلى طبع الجاهلية !))[١]. إنّه يأبى إلاّ أن ينال من الصحابة، وينال من خليفتهم عمر بن الخطاب - رضي الله عنهم أجمعين - أين هم من السلطة، هل إنّ انتماءهم إلى عشائرهم أقوى من انتمائهم إلى الإسلام ؟ .

إنّ الذي يدّعيه هو، والأصفهاني كلاهما يبغي أن ينال من الأمّة ورموزها .((فقد كان الأصفهاني مسرفاً، أشنع في الإسراف في الملذات والشهوات، وقد كان لهذا الجانب في تكوينه الخلقي أثر ظاهر في كتابه، فإنّ كتاب الأغاني أحفل كتاب بأخبار الخلاعة والمجون، وهو حين يعرض للكتاب والشعراء يهتم بسرد الجوانب الضعيفة في أخلاقهم الشخصية ويهمل الجوانب الجدية إهمالاً ظاهراً يدل على أنه كان قليل العناية بتدوين أخبار الجد والرزانة والتجمل والاغتسال، وهذه الناحية من الأصفهاني أفسدت كثيراً من آراء المؤلفين الذين اعتمدوا عليه))[٢].

و((تحدّث صاحب الأغاني بإسنادٍ له، عن عبد العزيز بن أبي نهشل، قال: قال لي أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وجئته أطلب منه مغرماً: يا خال, هذه أربعة آلاف

(١) تحت راية القرآن، مصطفى صادق الرافعي، ص ١٤٩ .

(٢) في تاريخ الأدب الجاهلي، علي الجندي، ص١٠٠ .

درهم وأنشد هذه الأبيات الأربعة، وقل : سمعتُ حساناً ينشدها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقلتُ : أعوذ بالله أن أفتري على الله ورسوله، ولكن إن شئت أن أقول , سمعت عائشة تنشدها فعلت , فقال : لا، إلاّ أن تقول : سمعت حساناً ينشدها رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس . فأبى عليّ، وأبيت عليه، فأقمنا لذلك لا نتكلم عدّة ليالٍ . فأرسل إليّ، فقال : قل أبياتاً تمدح هشاماً يعني ابن المغيرة المقدار، واستباح أن يكذب على عائشة. وعبد الرحمن لا يرضيه إلاّ الكذب على النبي ؛ فاختصما. وكلاهما شديد الحاجة إلى صاحبه، هذا يريد شعراً لشاعر معروف، والآخر يريد المال ؛ فيتفقان آخر الأمر على أن ينحل الشعر عبد الله بن الزبعري شاعر قريش. ومثل هذا كثير))[١].

وقد تقدّم رأي العلماء المحققين في الطعن في أبي الفرج الأصفهاني ؛ وأنّه يختلق رواياته، كما يقول ابن الجوزي : ((كان أبو الفرج الأصبهاني أكذَبَ الناس))[٢].

وهو يبحث عن الروايات الشاذة، والتي تثير الكثير من علامات الاستفهام، والتساؤلات، حتى للقارئ غير المتخصّص، ويحاول بوساطتها أن ينال من ذاك الشعر، ومن بعده بما استدلّ به العلماء على القرآن الكريم، ويرمي بسهامه الصحابة الكرام، فهو يقول: ((وأعجب من هذا أنّ السياسة نفسها قد اتّخذت الجنَّ أداة من أدواتها وأنطقتها بالشعر في العصر الإسلامي نفسه . من ذلك ما كان من قتل سعد بن عُبَادَةَ، ذلك الأنصاري الذي أبى أن يذعن بالخلافة لقريش، وقلنا إنّهم تحدّثوا أنّ الجنّ قتلته . وهم لم يكتفوا بهذا الحديث، وإنّما رووا شعراً قالته الجنُّ تفتخرُ فيه بقتل سعد بن عُبادَة هذا :

قد قتَلْنَا سيِّدَ الخَزْرجِ سعد بن عُبَادَة
ورَمَيْنَاهُ بسَهْمَيْنِ فلَمْ نخطئ فؤادَه

(١) في الشعر الجاهلي، ص ٨٧ - ٨٨ .

(٢) تاريخ مدينة السلام، الخطيب البغدادي، ١٣/ ٣٣٧ - ٣٣٨ .

وكذلك قالت الجنُّ شعراً رَثَتْ فيه عمر بن الخطّاب :

أبعد قَتيلٍ بالمدينة أَظْلمتْ ... له الأرضُ تهتزُّ العِضَاهُ بأسْؤُقِ
جَزى اللهُ خيراً من إمامٍ وباركتْ ... يدُ الله في ذاك الأديم الممزَّق
فمن يَسْعَ أو يركب جَناحَيْ نعامةٍ ... ليُدرك ما حاولتَ بالأمس يُسبَق
قضيتَ أموراً ثم غادرتَ بعدها ... بوائقَ في أكمامها لم تُفَتّقِ
وما كنتُ أخشى أن تكون وفاته ... بكَفَّيْ سَبَتْنَى أزرقِ العين مُطْرِق

والعجب أنّ أصحاب الرواية مقتنعون بأنّ هذا الكلام من شعر الجنِّ، وهم يتحدّثون بشيء من الإنكار والسخرية بأنّ الناس قد أضافوا هذا الشعر إلى الشمّاخ ابن ضرار))[1].

((فللأعراب شعرٌ كثير يزعمونه للجن ويعقدون له الأخبار، وقد تناقله عنهم الرواة وتظرّفوا به في الأحاديث، وأمثلته كثيرة .

وكان أبو إسحاق المتكلم، من أصحاب الجاحظ، يقول في الذي تذكر الأعراب من عزيف الجان وتغول الغيلان: أصل هذا الأمر وابتداؤه أن القوم لمّا نزلوا ببلاد الوحش عملت فيهم الوحشة، ومن انفرد وطال مقامه في الفلاة والخلاء والبعد عن الإنس، استوحش، ولا سيما مع قلة الاشتغال والمذاكرين؛ والوحدة لا تقطع أيامهم إلاّ بالمنى وبالتفكير؛ والفكر ربما كان من أسباب الوسوسة، وقد ابتلي بذلك غير حاسب... وخبرني الأعمش أنه فكّر في مسألة فأنكر أهلُه عقلَه حتى حموه (من الحمية) وداووه؛ وقد عرض ذلك لكثير من الهند، وإذا استوحش الإنسان مثل له الشيء الصغير في صورة الكبير، وارتاب وتفرق ذهنه وانتفضت أخلاطه، فيرى ما لا يُرى ويسمع ما لا يُسمع، ويتوهم على الشيء الصغير الحقير أنَّه عظيم جليل، ثم جعلوا ما تصور لهم من ذلك شعرًا تناشدوه، وأحاديث توارثوها

(١) ينظر، في الشعر الجاهلي، ص ٨٣ .

فازدادوا بذلك إيماناً ونشأ عليه الناشئ وربي به الطفل، فصار أحدهم حين يتوسط الفيافي وتشتمل عليه الغيطان في الليالي الخنادس، فعند أول وحشة أو فزعة وعند صياح بوم ومجاوبة صدى، تجده وقد رأى كل باطل وتوهم كل زور، وربما كان في الجنس وأصل الطبيعة نفّاجاً كذّاباً وصاحب تشنيع وتهويل، فيقول في ذلك من الشعر على حسب هذه الصفة، فعند ذلك يقول : رأيت الغيلان، وكلمت السعلاة؛ ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول : قتلتها ! ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول : رافقتها ! ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول : تزوجتها ... وممّا زادهم في هذا الباب وأغراهم به ومدّ لهم فيه، أنّهم ليس يلقون بهذه الأشعار وبهذه الأخبار إلاّ أعرابياً مثلهم، وإلاّ غبياً لم يأخذ نفسه قط بتمييز ما يوجب التكذيب أو التصديق أو الشك، ولم يسلك سبيل التوقّف والتثبّت في هذه الأجناس قط؛ وأما أن يلقوا راوية شعر أو صاحب خبر، فالرواة عندهم كلّما كان الأعرابي أكذب في شعره كان أظرف عندهم، وصارت روايته أغلب ومضاحيك حديثه أكثر!. والأمر قريب ممّا قاله أبو إسحاق؛ فإنّ أخبار الجن لا تعرف إلاّ عن رجل من الأعراب أو رجل من الرواة الذي يقصّون للعامة وأشباه العامة، وقد يأتي القليل من ذلك عن الراوية الثقة يريد به الإغراب في حديث إن جاء به، وشعر إن أنشده، ليدير الكلام على روعة تؤكّد معناه وتجعله ظريفاً))[1].

((وسنقف هنا وقفة نبين لك فيها ضلالة هذا الرجل وخلطَه وتعمّدَه الكذب وقلّة تَحفظه وأخذِه على نفسه فيما يقوله ويراه، وستطّلع من ذلك على دخيلة نفسه الخبيثة وتعلم يقيناً أنَّ غايته تحقير الإسلام وتهوين أمره، وأنه كالمكره على أن يسوق كلامه مَساق الشبهة مع أنه في سعة من التاريخ ونصوصه واللغةِ وأساليبها، وأنه دائماً يتبّع طريق الزنادقة في جعل الكلام مقدمات فاسدة ثم الإمساك عن النتيجة الآتية منها فلا يصرح بها بل يدع الطالب

(١) تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، ص ٢٣٤ .

يستخرجها بفكره؛ ليجعل ذلك من عمله فيكون أَلصق به وأشدّ تأثيراً في نفسه وعقله، ويخرجه ذلك إلى أن يعتقد ما انتهى إليه ويتأدى به الشك إلى التُهَمَة، وتسلمه التهمة إلى ما لا يَسلم عليه إيمان ولا يصح به يقين. يصور الشيخُ سعدَ بن عبادة كما تفهم أنت من موقف كموقف الحزب الوطني في البرلمان مثلاً، فهو يمثل (المعارضة) وظل يمثلها إلى أن قتل، أي: سنة خمس عشرة للهجرة على بعض الأقوال وبعد وفاة أبي بكر رضي الله عنه بنحو سنتين، والمعارضة إنما كانت معارضة حين نشأت مسألة الخلافة فما بقاؤها بعد أن استوثق الأمر، وهل تسمى بعد إجماع الأمة عصياناً وخروجاً أو معارضة يمثلها رجل سياسي؛ ثم يقول: إنّ سعداً هذا كان لا يصلي بصلاة المسلمين... الخ .

فهل يفهم القارئ من هذه التعمية إلاّ أنَّه كان يصلي بصلاة النصارى أو اليهود، مع أن صريح المعنى فيها أنّ الرجل كان يصلي بصلاة المسلمين لم يغيّر ولم يبدّل، ولكنه يصلي وحده وفي بيته لا مع الجماعة في المسجد؟.. ثم يقول : إنّ الجن قتَلَتْه غَيْلةً في بعض أسفاره، والرجل لم يُقتل وإنما سار إلى الشام وأقام بحوران إلى أن مات ووجدوه ميتاً على مغتسله، ولم يختلف المؤرخون في ذلك؛ وإنما يذهب شيخ الجامعة إلى جعل القتل سياسياً لمكان (المعارضة) حتى يحسن التلفيق وهذا أفضح لجهله، فما حاجة المسلمين إلى قتل رجل ضعيف مغترب))[1].

ثمّ يضيف ((من أين للفكر المستفاد من عصرنا هذا عصر الشك والإلحاد أن يستبطن خفايا العصور المؤمنة الغالية في إيمانها، ومن أين للعقل الذي تنشئه أسباب التخنث ويقوم على النعمة واللين والحياة الوادعة أن يمضي في أسرار الأعصر المخربة المدمرة البالغة في جبروتها؟ وليت شعري عن أستاذ الجامعة إذ يجانس فكرُه الغربي الأوروبي ذلك الفكرَ

(١) تحت راية القرآن، مصطفى صادق الرافعي، ص ١٧١ .

الشرقي العربي حتى يقع التمازُجُ بينهما. هل يكون كلا الفكرين إلاّ سببًا للآخر ونقضاً عليه؟ كما ظهر في كتابه الذي سب تاريخ الأدب به وسبه به تاريخُ الأدب ؟))[١].

وهو لم يكتف بالتلميح بل صرّح بأنّ الخلفاء الراشدين قد أسهموا في ذلك، فهو يرى أنّ ((العواطف والمنافع الدينية أقل من العواطف والمنافع السياسية أثراً في تكلُّف الشعر وانتحاله وإضافته إلى الجاهليين، لا نقول في العصور المتأخرة وحدها، بل فيها وفي العصر الأموي - أيضاً - وربّما ارتقى عصر الانتحال المتأثّر بالدين إلى أيام الخلفاء الراشدين -أيضاً-))[٢].

ويضيف بأنّ الدين الإسلامي؛ هو سبب هذا (الانتحال)[٣]، ((ولو أنّ لدينا من الوقت وفراغ البال ما يحتاج إليه هذا الموضوع للهَوْنا وألهَينا القارئ بنوع من البحث لا يخلو من فائدة علمية أدبية قيمة، وهو أن نضع تاريخاً لهذا الانتحال المتأثّر بالدين.

فنحن نرى أنّه تشكّل أشكالاً مختلفة دعت إليها الظروف المختلفة التي أحاطت بالحياة الدينية للعرب خاصة وللمسلمين عامة . فكان هذا الانتحال في بعض أطواره يقصد به إلى إثبات صحّة النبوّة وصدق النبي؛ وكان هذا النوع موجّهاً إلى عامّة الناس. وأنت تستطيع أن تحمل على هذا كلّ ما يروى من هذا الشعر الذي قيل في الجاهلية ممّهداً لبعثة النبي، وكلّ ما يتّصل به من هذه الأخبار والأساطير التي تروى لتقنع العامّة بأنّ علماء العرب وكهّانهم وأحبار اليهود ورهبان النصارى كانوا ينتظرون بعثة نبي عربي يخرج من قريش أو من مكة))[٤].

(١) المصدر نفسه، ص ١٦٨ .
(٢) في الشعر الجاهلي، ص ٨١ .
(٣) يعني : (النحل) كما قدّمنا .
(٤) في الشعر الجاهلي، ص ٨١ .

إنّه يصطاد أبياتاً قليلة يؤولها على وفق نظريته في قضيَّة النِّحَل .

وهذه الأمثلة لا شك في أنّها قاصرة عن اللّحاق بضخامة الرأي الذي طرحه في أنّ الدين كان عاملاً في دفع الرواة إلى انتحال الشعر، لسببٍ رئيس آخر هو أنّ هذه الروايات، لم تكن إلاّ بعد أن انتشر الإسلام وغطّى الأرض بأركانها المختلفة.. وبعد أن لم يعد للشعر دور في نشر حقيقة الإسلام، فلا نرى إلاّ أنّ هذا الرأي هو من باب تخبُّط د. طه حسين في قضيَّته الواهية. وفي أخرى، وهي ترتبط بالدين الإسلامي - أيضاً - يقول: ((نحو آخر من تأثير الدين في انتحال الشعر وهو هذا الذي يلجأ إليه القصّاص لتفسير ما يجدونه مكتوباً في القرآن من أخبار الأمم القديمة البائدة كعاد وثمود ومن إليهم. فالرواة يضيفون إليهم شعراً كثيراً. وقد كفانا ابن سلاّم نقده وتحليله حين جدَّ في طبقات الشعراء في إثبات أنّ هذا الشعر وما يشبهه ممّا يضاف إلى تُبَّع وحِمْيَر موضوع منتَحَل، وضعَهُ ابن إسحاق ومن إليه من أصحاب القصص . وابن إسحاق ومن إليه من أصحاب القصص لا يكتفون بالشعر يضيفونه إلى عاد وثمود وتبّع وحِمْيَر وإنّما هم يضيفون الشعر إلى آدم نفسه، فهم يزعمون أنّه رثى هابيل حين قتله أخوه قابيل . ونظنُّ أنّ من الإطالة والإملال أن نقف عند هذا النحو من السخف .

ونحو آخر من تأثير الدين في انتحال الشعر، وذلك حين ظهرَتْ الحياة العلمية عند العرب بعد أن اتّصلت الأسباب بينهم وبين الأمم المغلوبة . فأرادوا هم أو الموالي أو أولئك وهؤلاء أن يدرسّوا القرآن درساً لغوياً ويثبتوا صحّة ألفاظه ومعانيه. ولأمرٍ ما شعروا بالحاجة إلى إثبات أنّ القرآن كتاب عربي مطابق في ألفاظه للغة العرب، فحرصوا على أن يستشهدوا على كلِّ كلمة من كلمات القرآن بشيء من شعرِ العرب يثبت أنّ هذه الكلمة القرآنية عربية لا سبيل إلى الشكّ في عربيّتها))[1].

(١) في الشعر الجاهلي، ص ٨٨ - ٨٩ .

إنها عبارة غريبة تلك التي يقول فيها : (ولأمرٍ ما شعروا بالحاجة إلى إثبات أن القرآن عربي) إن في عبارته شك، وعدم يقين ؛ أظهرتا شخصيته المشككة في الإسلام.

وهو يربط بين القُصَّاص، ومصادر غريبة على المجتمع العربي الإسلامي، والشعر المضاف، بينما هو يتناسى أنّ هؤلاء الذين عدّهم مصادر للقصَّاص، ومن بعدهم للشعر العربي الجاهلي. هم ليسوا أصحاب ألسِنَةٍ عربية فصيحة، فمن مصادر القصّاص التي يذكرها، هي: ((مصدر يهودي أو نصراني، لما عمله هذا المصدر من أخبار الأنبياء والرهبان والأحبار وليس ينبغي أن ننسى هنا تأثير أولئك اليهود والنصارى الذين أسلموا وأخذوا يضعون الأحاديث ويدسّونها مخلصين أو غير مخلصين. ومصدر فارسي، وهو هذا الذي كان يستقيه القصّاص في العراق خاصة من الفرس ممّا يتصل بأخبارهم وأساطيرهم وأخبار الهند وأساطيرها . ثم مصدر مختلط هو هذا الذي يمثل نفسية العامّة غير العربية من أهل العراق والجزيرة والشام من الأنباط والسريان ومن إليهم من هؤلاء الأخلاط الذين كانوا منبثّين في هذه الأقطار والذين لم تكن لهم سيادة ولا وجود سياسي ظاهر. كلّ هذه المصادر كانت تمدُّ القصّاص. فكنت ترى في قصصهم ألواناً من القول وفنوناً من الحديث قد لا تُعجب العالِم المحقّق لاضطرابها وظهور سلطان الخيال عليها ؛ ولكن لها جمالاً أدبياً فنّياً رائعاً يُعجَبُ به من يستطيع أن يقدر ألتئام هذه الأهواء المختلفة التي تتّصل بشعوب مختلفة وأجيال متباينة من الناس . ويعجب به بنوع خاص الذين يحاولون أن يتبيّنوا فيه نفسيّة الشعوب والأجيال التي كانت تلهم هؤلاء القصّاص))[١].

وكعادته في التضليل، فهو يعدُّ قصَّة (ألف ليله وليله) من القصص العربية ((وأنت تعلم أنّ القصص العربي لا قيمة له ولا خطر في نفس سامعيه إذا لم يزينه الشعر من حين إلى حين .

(١) ينظر، في العصر الجاهلي، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

ويكفي أن تنظر في (ألف ليلة وليلة) وفي قصّة (عنترة) وما يشابهها، فسترى أنّ هذه القصص لا تستطيع أن تستغني عن الشعر، وأنّ كل موقف قيّم أو ذي خطر من مواقف هذه القصص لا يستقيم لكاتبها وسامعها إلاّ إذا أضيف إليها قدر من الشعر قليل أو كثير يكون عماداً لها ودعامةً . وإذن فقد كان القُصّاص أيام بني أمية وبني العباس في حاجة إلى مقادير لا حدّ لها من الشعر، يزينون بها قصصهم ويدعمون بها مواقفهم المختلفة فيه . وهم قد وجدوا من هذا الشعر ما كانوا يشتهون وفوق ما يشتهون . وأكاد لا أشك في أن هؤلاء القصاص لم يكونوا يستقلون بقصصهم، ولا بما يحتاجون إليه من الشعر في هذا القصص، وإنما كانوا يستعينون بأفراد من الناس يجمعون لهم الأحاديث والأخبار ويلفقونها، وآخرين يَنْظُمُون لهم القصائد وينسقونها))[١].

يقول المسعودي: ((كتاب (هزار أفسانة) وتفسير ذلك من الفارسية إلى العربية ألف خُرَافة، والخرافة بالفارسية يُقال لها : أفسانة، والناس يسمون هذا الكتاب ألف ليلة وليلة، وهو خبر الملك والوزير وابنه وجاريتهما وهما شيرزاد ودينازاد، ومثل كتاب (فرزة وسيماس) وما فيه من أخبار ملوك الهند والوزراء، ومثل كتاب (السندباد) وغيرها من الكتب في هذا المعنى))[٢].

ويقول الدكتور شوقي ضيف : ((وظلّ الاتجاه إلى ترجمة بعض القصص الفارسية قائماً، وكان أهمّ ما تُرجِمَ في هذا العصر حكايات ألف ليلة وليلة واسمه بالفارسية (هزار أفسان) أي : ألف حكاية))[٣].

إذن ألف ليلة وليلة هي فارسية، وليست عربية، وندّعي أنّها من أشدِّ القصص التي

(١) في الشعر الجاهلي، ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٢/ ٢٧٦ .

(٣) العصر العباسي الثاني، ص ٥٢٥ .

ظلمت العرب، فنتج عنها صورة نمطية للعربي، وهو محاط بالغانيات العاريات، وهو يقارع كؤوس الخمر، فهذه الصورة ما زالت تشكّل الذاكرة الجمعية للغرب، ونراها مبثوثة في نتاجهم الأدبي والسينمائي؛ تسم مجالس الخلفاء، والقادة، والأغنياء؛ تبثُّ سموماً يراد بها أن يُنال من شخصيّة العربي في بيداء صفائه ونقائه.

* * *

الخاتمة

الحمد لله نحمده، ونصلّي ونسلّم على المبعوث رحمةً للعالَمين سيِّدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إنّ البحثَ أيَّ بحثٍ لا بدَّ له من نتائجَ يخرج بها؛ ليفيد منها المتلقّي، ومهما كانت خطوطُ البحث ومساراته قد درست من قبل، غير أنّ على الباحث أن يجد مساراته الخاصّة التي يصل من خلالها إلى نتائج مفيدة. لذا فقد برزت نتائج من أبرزها ما وجدناه من تناقض في نظريّته في النِّحَل، فهو تارة يثبت وجود الشعر الجاهلي، ويشكّك في كثرته، وأخرى ينفي وجوده تماماً، حينما يقول: ((ولا أضعف عن أن أُعلِن إليك وإلى غيرك من القرّاء أنّ ما تقرؤهُ على أنّه شعر امرئ القيس أو طرفة أو ابن كلثوم أو عنترة ليس من هؤلاء الناس في شيء؛ وإنّما هو انتحال الرواة أو اختلاق الأعراب أو صنعة النحاة أو تكلُّف القُصَّاص أو اختراع المفسِّرين والمحدّثين والمتكلِّمين)) ثمّ يناقض نفسَه فيقول: ((لا ينبغي أن يستشهد بهذا الشعر على تفسير القرآن وتأويل الحديث، وإنّما ينبغي أن يستشهد بالقرآن والحديث على تفسير هذا الشعر وتأويله)).

وكذلك فقد وجدنا اعتمادَه على روايات ضعيفة وموضوعة، ومن رواة كُذّاب وضِعاف ولم يُعْتَمَد عليهم لكذبهم، غير أنّه حاول إظهار تلك الروايات وكأنّما هي الوحيدة التي تمثِّلُ تاريخَنا، بينما هي أضعف حلقات التاريخ وأبعدها عن الصحّة؛ وهو يختار روايات لأخباريين ألفوا الكذب، وضعَفهم القدماء؛ لدسهم، وكذبهم كما رأينا عند الأصفهاني؛ الذي قال فيه ابن الجوزي كان أكذب الناس، وبذلك حاول الطعن في الشعر الجاهلي، ومن خلاله حاول الطعن في رواسي الإسلام، فهو تارة يدعي أن المشركين جاهدوا الإسلام، وأخرى أنهم

انتحلوا الشعر لإثبات القرآن الكريم؛ وهو في ذلك كله ينتقل هنا وهناك من دون منهجية واضحة؛ لضعف مرتكزاته ولاندفاعه الأهوج غير المحكوم برؤية راسخة .

أقول قولي هذا وأستغفر الله إنّه كان غفّاراً، ونعوذُ بالله من الزلل والخطل.

❋ ❋ ❋

المصادر والمراجع

١. أثر القران في تطور النقد العربي، محمد زغلول النجار، مكتبة الشباب، مصر، ط١، (د . ت) .

٢. الأعلام، خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين ، بيروت، ط ١٥ (٢٠٠٢م) .

٣. تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (ت: ١٢٠٥هـ)، تحقيق : مجموعة من المحققين، دار الهداية (د . ط)، (د . ت) .

٤. تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، (د . ط).

٥. تاريخ مدينة السلام، الخطيب البغدادي (ت: ٣٦٣هـ) تحقيق د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١ (٢٠٠١م) .

٦. تحت راية القرآن، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١ (٢٠٠٠م).

٧. سير أعلام النبلاء، الذهبي (ت: ٧٤٨هـ) تحقيق شعيب الارنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١ (٢٠٠١م) .

٨. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن عماد الحنبلي، دار الآفاق، بيروت (د . ط) (د . ت) .

٩. الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، د. يحيى الجبوري، دار الرسالة، بيروت، ط ٩ (٢٠١١م) .

١٠. العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر (د . ط) (١٩٦١م) .

١١. العصر العباسي الثاني، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط ١٠ (١٩٩٦م).

١٢. عناية المسلمين باللغة العربية، د. أحمد الخراط، مجمع الملك فهد للطباعة، السعودية، (د.ط)، (د.ت).

١٣. في تاريخ الأدب الجاهلي، علي الجندي، مكتبة دار التراث، مصر، ط١ (١٩٩١م).

١٤. لسان العرب، ابن منظور الإفريقي المصري، دار صادر، بيروت (د. ط)، (د. ت).

١٥. مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي، شرح د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢ (٢٠٠٤م).

١٦. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، دار الساقي، ط٤ (٢٠٠١م).

١٧. ميزان الاعتدال في نقد الرجال، الذهبي (ت: ٧٤٨هـ) تحقيق علي محمد البجاوي، دار الفكر، بيروت (د. ط)، (د. ت).

١٨. يتيمة الدهر، الثعالبي، تحقيق إبراهيم صقر، مكتبة مصر، القاهرة (د. ط)، (د. ت).

❋ ❋ ❋